

الفصل الحادي والعشرون

العباسيون

المستظهر — المكتفي — المستنجد

٤٩٢ — ٥٥٦٩؛ ١٠٩٩ — ١١٧٤ م

الصلبيون

الخليفة المستظهر — السلطان بركياروق — حروبه مع تنش وأخيه محمد — وفاة بركياروق — تولى محمد السلطنة — النزاع بين أمراء الإقطاعيات — تقدم الصليبيين — وفاة السلطان محمود — وفاة الخليفة المستظهر — مبايعة الخليفة المسترشد — السلطان سانجار — سلطان المشرق — السلطان محمود سلطان العراق والشام — السلطان عماد الدين زنكي — وفاة السلطان محمود — تولية السلطان مسعود — اغتيال المسترشد — مبايعة الراشد بالخلافة — عزل السلطان مسعود — مبايعة المكتفي — حروب زنكي مع الصليبيين — تولية نور الدين محمود فوزه على الصليبيين — وفاة المكتفي ومبايعة المستنجد — إرسال شركو إلى مصر — الاستيلاء على مصر — صلاح الدين الأيوبي وفاة المستنجد — مبايعة المستضيء — وفاة نور الدين محمود

لم يكن في مكنة العالم المسيحي أن يفتنم — عمداً كان أو بطريق الصدفة —
فرصة أكثر ملاءمة من تلك التي أغار فيها على القارة الآسيوية، حيث كانت
الإقطاعيات قد قوضت دعائم الإمبراطورية السلجوقية القوية وفككت
أواصرها .

٤٩٢-٥٥٠٩
— ١٠٩٩
م ١١٧٤

فكان ألب أرسلان قد أقطع ابن عمه سليمان آسيا الصغرى كما وهب
ملكشاه الشام لأخيه تنش^(١)؛ ولكن سرعان ما استقل هذان الأميران
بمملكتيهما استقلالاً تاماً، ولم يعد ير بطهما بالسلطان غير السيادة الاسمية . ومما

الإقطاعيات في
آسيا
— ١٠٩٩
٢١١٧٤

(١) الملقب « بتاج الدولة » .

يلاحظ كذلك أن هذا الانفصال لم يكن وحده الذي دم الإمبراطورية الإسلامية ، بل كانت الجزيرة والشام وفلسطين موزعة بين عدة من الرؤساء الإقطاعيين ، الذين لم تكن تربطهم بالسلطان غير رابطة المساعدات العسكرية التي كانوا يسدونها إليه عند الحاجة . وتقول لنا الرواية : إنه طالما كان « نظام الملك » ذو العبقرية المنقطعة النظير « وملكشاه » صاحب الشخصية الفذة يسيطران على الإمبراطورية الإسلامية كان الرؤساء الإقطاعيون والأمراء يدينون للسلطان بالطاعة والولاء ، ولكن ما إن قضى الاثنان نحبهما حتى تمزقت أوصال الدولة وانهار بنيانها ، وحلت الحروب والاضطرابات محل الطمأنينة والسلام . وكان أولى تلك المنازعات الخلاف الذي نشب بين ترکان خاتون الوصية على ابنها محمود وبين بركياروق ، بيد أن محموداً لم يلبث أن توفي فنأدى بركياروق بنفسه رئيساً على الدولة السلجوقية ، وأنتم الخليفة « المتقي » عليه بلقب السلطان .

وفما كان بركياروق منهمكاً في إصلاح شؤون الدولة شق عليه عمه تنش عصا الطاعة ، فنشبت بين الاثنين حرب طاحنة أسفرت عن هزيمة تنش وقتله . ولكن الأمور مع ذلك لم تهدأ إذ لم يمض طويل وقت حتى نشبت ثانية بين السلطان وبين أخيه محمد حروب راثمة استمر أوارها عدة أعوام غير قليلة . وتقول لنا الرواية العربية : إنه تدفقت في تلك الأثناء على بغداد جموع الهاريين من وجه الصليبيين في شهر رمضان ، وأخذوا يقصون على أهلها حوادث السفك وأعمال التخريب التي ارتكبها المغيرون ، فنسى المسلمون الصيام من هول الفاجعة « وقاموا بالجامع يوم الجمعة فاستغاثوا وبكوا^(١) وأبكوا » حتى لم يتمالك الخليفة المستظهر بالله أن أرسل ثلاثة من رجال بلاطه إلى بركياروق ومحمد — اللذين كانا يتحاربان على مقربة من حلوان — كي يحضوما على نبذ الخصام وتوحيد

(١) نظم أحد شعراء العصر أبو مظفر الإيبوردى قصيدة راثمة عبر فيها عما كان يخالج قلوب المسلمين وقتئذ من الحزن والأسى ، وقد اشهر كل من ابن الأثير وأبي الفداء في تاريخهما بسررد حوادث تلك الفاجعة .

صفوفهما لمحاربة الصليبيين ، ولكن يظهر أن وساطة الوفد واستغاثته لم تثمر ثمرتها المرجوة ، إذ لم يكبد ينقضى على صلحهما مدة وجيزة حتى نشبت الحرب بينهما من جديد بسبب اغتيال وزير بركياروق . ويقول المؤرخون بهذا الصدد : « إن الحصومة بين السلطانين أفادت الأفرنج فائدة تذكر ، إذ أفسحت المجال لنزولهم في البلاد الإسلامية ونشوب أظفارهم فيها » .

تولية السلطان
محمد

توفي السلطان بركياروق عام ٤٩٨ هـ (١١٠٤ م) خلفه أخوه محمد^(١) الذي بلغت مدة حكمه أربع عشرة سنة ، وكان عادلا حسن السيرة شجاعا ، شاد الشعراء المعاصرون بكرمه وبره باليتامى وعطفه على الفقراء . غير أن أحوال الإمبراطورية السياسية لم تكن وقتئذ لتشجع على خلق وحدة متماسكة تقاوم العدو المشترك ، فكان التحاسد المنتشر بين مختلف رؤساء الإقطاع في الشام والجزيرة باعثاً على نشوب الحروب بينهم ؛ وكان أمير حلب « رضوان بن تنش »^(٢) قد وضحت خيانتها ، كما كان الأمراء الآخرون — وإن كانوا يميلون إلى تلبية أوامر السلطان — أميل إلى مآربهم الشخصية منهم إلى خدمة قضية الوطن العامة ؛ كما جعلت الفوضى — التي سادت الدولة الفاطمية وقتئذ — من المتعذر أن لم يكن من المستحيل على مصر إسداء أية مساعدة للمدن التي غدت هدفا لغزو الأعداء .

الخلافة الفاطمية

كان الخليفة الفاطمي « المستعلي » مجرداً من كل سلطان ونفوذ في حين كان قائد الجيش هو الحاكم المطلق المستولى على دفة الأمور ، غير أنه بدلا من أن ينتهر هذه السامحة ، ويوجه الجهود لتوحيد جيش الدولة الفاطمية ، ويتخذ خطة حاسمة للقضاء على المغيرين ، أخذ يقضى جل أوقاته في القاهرة يحوكم

(١) كان الفيلسوف المشهور والفقير الذائع الصيت الإمام أبي حامد الغزالي معاصراً للسلطان محمد الذي ارتفعت عنده منزلته . وقد تزوجت فاطمة ، إحدى بنات السلطان ، من الخليفة « المعتدي » ويقال : إنها كانت على جانب عظيم من العلم والفتنة السياسية .
(٢) خلف « تنش » ولدين : رضوان ودقاق ، فولى الأول حلب والثاني دمشق .

حول منافسيه المؤامرات كي يخلوله الجو لبلوغ مآربه .

وبالحاح السلطان محمد خفف الأسراء (الرؤساء الإقطاعيون) من غلوائهم ووجدوا صفوفهم ؛ ثم نازلوا الأعداء في معركة أو معركتين ، ولكن بلدوين^(١) ملك بيت المقدس زحف على دمشق في أوائل سنة ١١١٣ م ، ولما عجز « طفتكين » عن صده استنجد « بمودود » أمير الموصل . وفي تموز سنة ١١١٣ وحّد أسراء الموصل ودمشق وسنجار وماردين جيوشهم ، وزحفوا على فلسطين ، فالتقى الجيوشان ونشبت بينهما معركة هائلة بالقرب من طبرية انهزم فيها الفرنج هزيمة رائعة ، وغرق معظمهم في نهر الأردن والبحيرة المعروفة باسم المدينة . وفي شهر حزيران سنة ١١١٩ أنزل « الغازي » أمير ماردين بالصليبيين خسائر فادحة في موضع يسمى بالبلاط ، وحتى المصريين أنفسهم حازوا عندئذ بعض النجاح على سواحل البحر ، وتغلبوا على الفرنج في بعض المعارك ؛ بيد أن أوربا برمتها كانت تشد أزر الصليبيين والنجادات كانت تندفق عليهم من جميع أنحاء العالم المسيحي كما أثر مقتل « مودود » — الذي اغتاله أحد الباطنيين بعد موقعة طبرية — وانشقاق الزعماء المسلمين تأثيراً سيئاً ، وأعانا الصليبيين على استرداد المواقع التي كان المسلمون قد استولوا عليها ؛ وهكذا أخذ الصليبيون يسيطون سلطانهم ، ويستولون على المدن الإسلامية واحدة تلو الأخرى ، ويعيشون في البلاد ويذبحون السكان ، ويثقلون كاهلهم بفروض الذلة والاستعباد .

وفي سنة ٥١١ هـ توفي السلطان محمد ، وبعد عام توفي الخليفة المستظهر ، وكانت مدة خلافته خمساً وعشرين سنة ، وخلفه ابنه أبو منصور الفضل الملقب « بالمسترشد بالله » .

لم تمر وفاة السلطان محمد دون أن تترك أثراً بارزاً في مصائر المسلمين والنصارى معاً ، فقد خلفه أخوه سنجر^(٢) — آخر أبطال الشعب السلجوقي الباسل — ثم

(١) بسميه ابن الأمير « بدوين » بينا يسميه المؤرخون الآخرون « باردفيل » .

(٢) هو صديق أنواري الشاعر المعروف .

أول موقعة في طبرية

١٣ محرم
٥٥٠٧
تموز ١١١٣ م

حزيران
١١١٩ م

١٥ ذوالحجة
٥١١
١٨ نيسان
١١١٨ م

أبو منصور
الفضل المسترشد بالله
١٦ آب
١١١٨ م

ولى الملك من بعده ابنه محمود الملقب بحامى المسلمين والذائد عن حياضهم .
وتقول الرواية العربية : إنه لم يصد هجمات الفرنج فحسب بل قاتلهم أيضاً عن كل
شبر من الأرض التي كانوا قد احتلوها ، وأجلاهم عن مواقعهم مثقلين بالهزيمة .
أما عماد الدين زنكى — بطل المؤرخين النصارى — فهو ابن آق سنقر^(١) « قاسم
الدولة » الذى لعب دوراً خطيراً فى الأيام التى سادت فيها الاضطرابات على أثر
وفاة رئيسه الأكبر ، وقد أعقب ولدأ واحداً اسمه زنكى ، ومع أنه لم يكن قد
ناهز الرابعة عشرة ، إلا أن جميع الزعماء والأمراء التفوا حوله وحبوه بولائهم لما
ظهر عليه من دلائل النبوغ ، وقوة الشكيمة ، وبعد الهمة ، والكفاية العسكرية
والإدارة الممتازة .

وفى عام ٥١٦ هـ أقطع السلطان «محمد» الأمير زنكى مدينة واسط وشاهناه
البصرة ، كما أسند إليه بعد أربع سنوات إمارة الموصل والجزيرة العليا ، ولقبه
«بأتابك» ؛ وعندئذ أرسل له الخليفة المهدي والعهد التقليديين . ومما يجب الإشارة
إليه بهذا الصدد أنه يعتبر المؤسس للأسرة الأتابكية فى الموصل ، ويصف لنا
ابن الأثير ضعف حالة المسلمين فى تلك الأيام وصفاً مؤثراً بقوله : « كان جيش
الصليبيين عظيماً ، واشتدت أفعالهم فارتكبوا كل محرمة دون خوف من عقاب ،
وامتدت مملكتهم من ماردين فى أعلى الجزيرة إلى مدينة العريش على حدود
مصر ، وأخضعوا مدينة حران والرقه ، وامتد جيشهم حتى أبواب نصيبين ،
وقطعوا جميع الطرق إلى دمشق ما عدا طريق الصحراء المسار بالرها ، وفرضوا
الجزية على المدن ، وقاسموا حلب على جميع دخلها حتى على رحا لأهلها بظاهر
باب الخنان » .

(١) كان جندياً قديراً ، وإدارياً حازماً سادت فى أيامه العدالة وأصبحت السبل ساكنة
والخواف آمنة والأسواق معتدلة ، وقد وضع نظاماً يقضى بأنه إذا وقعت حادثة سرقة فى
لأحدى المناطق فرضت قيمتها على جميع القرى المجاورة لها ، وقد أخذت بهذه النظرية
الملك المصرية .

أما زنكي فقد بذل قصارى جهده في تحسين موارد البلاد ، ونظم الجيش ، وحشد قوة كبيرة لإجلاء الفرنج عن الجزيرة ، وأضحى باستيلائه على منبج و بيزا أو (بوزا) سيد الموصل دون منازع . وفي سنة ١١٢٨ زحف على مدينة حلب تلبية لطلب أهلها - الذين كانوا قد لقوا من الصليبيين أشد الأهوال - واستولى عليها عنوة ، ولم يمض سوى قليل حتى استنصر به أهل حماة . وفي السنة التالية هزم زنكي الصليبيين^(١) عند أسوار « قلعة الأتاب » ، واستولى عليها بعد مقاومة شديدة ، ثم عقد الصلح مع جسكلين أمير الرها الذي يسميه ابن الأثير « أعظم شياطين الصليبيين » .

احتلال مدينة
حلب
٥٥٢٢
م ١١٢٨

٤٩٢-٥٥٦٩

وبعد أن أحرز زنكي هذا النصر الباهر ، انصرف في الحروب الداخلية التي دارت رحاها على أثر وفاة السلطان محمود ، الذي كان قد أوصى بالملك لأخيه مسعود ، غير أن أخاه الآخر سلجوقشاه نازعه السيادة ؛ فنشب قتال بين الأخوين ، ولكنهما عادا فتصالحا ، ثم زحفا على عمهما « سنجر » فهزماه في موقعة « دمارج » وعاملهما برغم ذلك بالعطف والكرم وأقرهما على ممتلكاتهما . وبعد مدة يسيرة نشبت معركة بين الخليفة المسترشد ومسعود دارت فيها الدائرة على الخليفة نفسه ، ووقع أسيراً في قبضة خصمه ؛ وفيما كان الخليفة مقياً في خيمته هجمت عليه جماعة من الباطنية وفتكوا به ، فخلفه ابنه أبو جعفر المنصور ولقب « بالراشد بالله » ؛ ولكن مع ذلك لم يبق في كرسي الخلافة غير بضعة أشهر ، إذ أدى النزاع الذي نشب بينه وبين السلطان مسعود إلى أن ينادر^(٢) الأول إلى الموصل ، وأن يجمع مسعود القضاة والفقهاء ، ويعرض عليهم اليمين التي كان قد حلفها الراشد بالله^(٣) ، فأفتوا بخروجه من الخلافة ، ثم بايعوا من بعده أبا عبد الله بن المستظهر الذي لقب

وفاة السلطان
محمود
٥٥٢٥
١٠٣٠ -
م ١٠٣١
موقعة دمارج
رجب ٥٥٢٦
أيار ١١٣٢ م

الخليفة المسترشد

أبو عبد الله
المقتني لأمره

(١) يسميه ابن الأثير بالشياطين .

(٢) وقد رافقه عماد الدين زنكي صاحب الموصل . (العرب)

(٣) ومي : « بأنه متى جند أو خرج أو لقي أحداً من أصحاب السلطان بالسيف فقد

خلع نفسه من الأمر » . (العرب)

« بالمتقى لأمر الله » ولما كانت سلطة ملوك السلجوقيين يومئذ قد ضعفت ، فقد انتهز « المتقى » تلك الفرصة وظل يقوى نفوذه في العراق وكلدة حتى استرد سلطته الزمنية في الولايات الداخلية . أما أتابك زنكي فقد حصر جُلَّ اهتمامه بالشام وصرف النظر عن المشرق . ويقال إن الصليبيين بدأوا في تلك الأثناء يغيرون على البلاد الإسلامية مرة أخرى بعد أن جاءهم المدد من أوروبا ، والتحت بهم قوة عظيمة من الروم بقيادة الإمبراطور « جون كومانوس » نفسه ، فاستولوا على « بذاعة » وأعملوا السيف في رقاب أهلها الذكور ، وأسروا النساء والأطفال ، ثم زحفوا على حصن « سينر » مسقط رأس أسامة^(١) وهو بعد مسيرة يوم واحد عن حماة ومشيد على صخرة هائلة لا يمكن الوصول إليها إلا من طريق ضيق جداً منحوت في الجبل ، ويجرى من تحته نهر العاصي ، ثم يمتد عبر وهدة قد شيد فوقها جسر خشبي ، فإذا ما فتح الجسر تعذر الوصول إليه ؛ وقد كان في مستهل القرن الخامس ملكاً لثقل الكنانيين ، وكان لموقعه الحصين ولقربه من حماة من جهة ، ومن مرا كز الصليبيين من الجهة الأخرى أهمية عظمى عند الفرنج والصليبيين ، ولهذا لم يكد زنكي يصله خبر استغاثة أبي عسكر سلطان الذي كان عندئذ حاكم سينر حتى لبي دعوته ، وتقدم بجيشه لانتقاذ الحصن من المغيرين . غير أن الروم لم يلبثوا أن رفعوا الحصار وعادوا إلى بلادهم ، وعندئذ انتهز زنكي تلك الفرصة واستولى على قلعة أركة الواقعة داخل حدود إمارة طرابلس ودمرها تدميراً ، ثم استولى على بعلبك واستعمل عليها نجم الدين أيوب أبا صلاح الدين الأيوبي ، غير أن أتابك لم يستطع إجلاء الفرنج عن الشام طالما كان يحكم دمشق أمير مستقل .

١٠٩٩ -
١١٧٤ م

شعبان ٥٣٢ هـ
نيسان ومايس
١١٣٨ م

وفي عام ٥٣٤ هـ هم أتابك على الفرنج بالقرب من « بارن » في موقع يعرف

١١٣٩ م

(١) يعتبر الأمير أسامة الملقب بمؤيد الدولة من الأبطال الأوائل ، وله مذكرات اسمها (كتاب الاعتبار) نشر في باريس سنة ١٨٨٤ م .

« بجبل فيران » واستولى عليه عنوة ، وكان ذلك الحصن من أمنع حصون الصليبيين الذين كانوا قد اتخذوه معقلاً ليشنوا الغارة منه على المدن الواقعة بين حلب وحماة .

احتلال الرها
سنة ١١١٤ م

وفي عام ٥٣٩ هـ انتصر « أتابك » انتصاراً باهراً باستيلائه على مدينة « الرها » التابعة لجوسككين الثاني « بطل الصليبيين وشيطانهم » ، وفي الواقع سمى هذا النصر « بنصر الأنصار » ، إذ كان المسيحيون يعتقدون أن الرها من أعظم مدنهم على وجه الإطلاق نظراً لكونها مقراً لإحدى أسقيياتهم بعد بيت المقدس وأنطاكية وروما والقسطنطينية ؛ ومما لا شك فيه أنها كانت وقتئذ تعد مفتاح الجزيرة ، وبالاستيلاء عليها تمكن زنكي من القبض على ناصية الأمور في المناطق والحصون الأخرى المجاورة لها . وتقول لنا الرواية : « إنه لما أوفى على المدينة أمن أهلها على أرواحهم وأملاكهم إن هم سلموا دون مقاومة ، ولكنهم رفضوا إجابة شروطه ، وأبوا التسليم ففتحها عنوة ، وفكر في صب جام غضبه على أهلها ليثأر للفظائع التي ارتكبتها الصليبيون في بيت المقدس وأنطاكية ، ولكن مردهته تغلبت على سخطه ، فلم يقتل أحداً غير الحارث بن الرهبان والقسس الذين كانوا يحرضون جنود الفرنج على القتال ، وقد أطلق سراح جميع الرجال والنساء والأطفال الذين وقعوا في أيدي الفاتحين ورد إليهم أموالهم » .

١٠٩٩ -
١١٧٤ م

اغتيال عماد الدين
زنكي
١١٤٦ - ٩ م

وبعد أن وضع « أتابك » حامية قوية في المدينة تابع زحفه فافتتح سروج وباروة والقلاع الأخرى التي كانت في أيدي الصليبيين ، وفيما كان يحاصر « قلعة جبير » هجم عليه وهو نائم أحد مماليكه بتحريض من أعدائه وقتك به ؛ وهكذا قتل أحد أبطال ذلك العهد^(١) المشهورين ، وكان حاكماً عادلاً كريماً عاقلاً . ويقال إنه لما استولى على الجزيرة كان الجزء الأكبر منها ومن الشام غير ذي زرع ، وكان الفلاحون في حالة يرثى لها من الفقر والحراب ؛ أما الحركة

(١) ويسميه ابن الأثير بالعصيد .

التجارية فكانت مشلولة بسبب غزوات الفرنج المتوالية ، ولكنه أقبل على إحياء الزراعة ، والاهتمام برفاهية السكان ، فنعمت البلاد في ظله بنعمة الطمأنينة والعدل ؛ كما شيد المدن المحرقة ، وشدد الوطأة على القتلة واللصوص ، ونظف البلاد من السفاكين والنهابين ؛ وقد كان فوق ذلك يهتم اهتماما خاصا بالمحافظة على سمعة الحریم ، ويشدد الوطأة على كل من يعتدى عليهم وعلى أهل العيث والفساد ؛ وكان من عادته أن يوزع الصدقات سرا في سائر أيام الأسبوع عدا أيام الجمعة حيث كان يوزع مائة دينار علناً على الفقراء والمعوذين ؛ وكان صديقاً وفياً لأصدقائه ، وسيداً مهاباً يراعى النظام بكل دقة في معسكره ، وكان لا يبدله في البر بالعلماء غير وزيره جمال الدين الملقب بالجواد الذي كان يقوم بتلاوة على منصبه بوظيفة (المشرف) . ومن المأثور عن زنكي قوله : إنه يؤثر ظهور الخيل على الفراش الوثير ، وصلصلة السيوف على أشجى الأنغام ، وقرقة السلاح على مغازلة الغانيات الفاتنات . وقد أعقب أربعة أبناء هم : سيف الدين الغازي وهو أكبرهم وقد أسندت إليه إمارة الموصل ؛ ونور الدين محمود الذي ورث عن أبيه لقب حامى المسلمين وإمارة حلب . أما الابنان الآخران فهما قطب الدين مودود ؛ ونصرة الدين أمير ميران . وقد تدرب سيف الدين وأخوه نور الدين على الفنون العسكرية ؛ أما نور الدين فلم يكن جندياً فحسب بل كان أيضاً عالماً فقيهاً مولعاً بتشجيع العلوم والفنون ، فأسس الكليات والمستشفيات في جميع أنحاء المملكة وكان يفيض على طلاب العلم والعلماء الذين كانوا يؤمون بلاطه بكرمه وسخائه ، كذلك كان أول من أسس محكمة عليا نظامية ، وأطلق عليها اسم « دارالعدل » ولما كان تقدير الملوك — كما يقول المؤرخ الانكليزي المشهور غيبون — لا يكون صحيحاً إلا بعد وفاتهم ، وبخاصة إذا كان هذا التقدير صادراً عن أعدائهم ؛ وقد وصف لنا « بطريك صور » السلطان نور الدين — الذي كان في نظره من أشد أعداء النصرانية — « بأنه كان ذا عقل ودين متين » وكان

٤٩٢-٥٦٩ م

نور الدين محمود

١٠٩٩ —
١١٧٤ م

صفاته

جل أمانيه في الحياة أن يوفر أسباب السعادة والرفاهية للشعب .
وقد حدث عقب اعتلاء نور الدين عرش حلب أن ثار عليه نصارى الرها
تؤازرهم قوة كبيرة من الفرنج بقيادة جوسلين ، وانقضوا على حامية المدينة ،
وفتكوا بمجنودها وأهلها المسلمين ، ولكن نور الدين هاجمهم وفتك بهم فتكا
ذريعاً ، وأثنخ في جنود جوسلين والخنونة المارقين الذين ساعدوهم ، كما أسر
بنى الأرمن الذين كانوا حلقة الاتصال بين الخنونة وبين الصليبيين .

الحروب الصليبية

الثانية

٨٥٤٢

١١٤٧

ويقال إن سقوط مدينة الرها مرتين في قبضة المسلمين أثار سخط أهل
أوربا ، فقامت حركة دينية شبيهة بالحركة الأولى ، ويرجع الفضل في إشعالها
هذه المرة إلى الراهب الفرنسى « سان برنارد » فانتظم في عقد هاته الحملة المقدسة
سنة ١١٤٧ — لإنقاذ مجد اللاتين الضائع — إمبراطور ألمانيا كونراد الثالث ،
وملك فرنسا لويس السابع ؛ ويقول المؤرخون المعاصرون : إن هذين الملكين
سارا في تسعمائة ألف مقاتل لمساعدة إخوانهم في الشام وفلسطين ، وقد اصطحب
ملك فرنسا زوجته « أليينور كوين » ، التي تزوجت فيما بعد من ملك الانكليز
هنرى الثانى ، وحذت حذوها جماعة من النساء اللواتى انتظمن في عقد الحملة
المنكودة ، وسرن حاملات الرماح والدروع في صفوف الجيش الألماني
والجيش الفرنسى ، وقد أدى وجود هاته النسوة بطبيعة الحال إلى انتشار ضروب
الفساد في صفوف الجيش ، ووقعت الكارثة المحتومة ، كما تكبد الملكان أفدح
الخسائر في أثناء زحفهما على الشام حيث أيبد القسم الأعظم من جيش « كونراد »
بظاهر اللاذقية ، بينما فنى معظم جنود الملك لويس في سيرهم إزاء سواحل آسيا
الصغرى على قم جبال كادمس المعروف الآن ببياباداغ . وعندما غشى لويس مدينة
أنطاكية التي كانت في قبضة ريموند كان قد فقد ثلاثة أرباع جيشه ، وكانت
تقيم في تلك المدينة — التي كانت تضطرم بالشهوات البهيمية في ذلك الحين —
أميرة طولوز ، وأميرات بلو وسبيل أوف لاندرس ، وموريل وأميرة روسى ،

٢٥ تموز

١١٤٨

وتلكورى و بولون ، وكثيرات غيرهن من المشهورات بالجمال ونبيل المحتد . وفي مدينة أنطاكية انعمس المحاربون وحماة الصليب في الشهوات والميلذات ، وكانت ولائم ريموند تستحيل إلى سكر وعريضة ، كما كانت الملكة أليينور قد ذاعت فضائحتها الفرامية وتهافت العشاق عليها . وبعد أن انتعش الصليبيون في أنطاكية ، وجددوا قواهم زحفوا على دمشق ، ولكن قوات نور الدين محمود وسيف الدين غازى^(١) كانت قد اقتربت للدفاع عنها ، ولما رأى الصليبيون أنهم أمام قوة هائلة لا قبل لهم بها رفعوا الحصار وارتدوا إلى فلسطين ، ولم يلبث كوزناد ولويس أن عادا إلى أوروبا ، وهكذا فشلت الحرب الصليبية الثانية فشلاً مريعاً .

نهاية الحرب
الصليبية الثانية

ومن ثم تفرغ نور الدين محمود إلى محاربة الفرنج في المواقع الأخرى ، فاستولى عنوة على قلعة « العريضة » وهي من أمنع القلاع على حدود الشام ، وألحق بالنصارى خسائر عظيمة في قلعة « زغرة » على مقربة من أنطاكية ، وفي المعركة التي دارت عند أسوار « عنتاب » قتل الأمير ريموند « أمير أنطاكية » ، وألحق المسلمون بجيشه خسائر فادحة ، وقد أعقب ريموند طفلاً صغيراً يدعى بوهيموند ويسميه « العرب بيميند » ؛ ولكن أمه لم تلبث أن تزوجت من قائد ثان ، لاقى هو الآخر حتفه بعد أن وقع أسيراً في قبضة نور الدين في معركة صغيرة دارت فيها الدائرة على جيش الفرنج .

— ١٠٩٩
م ١١٧٤

— ١١٨٤
م ١١٤٩

وفي عام ٥٤٤ هـ اكتسح نور الدين قلعة « أفامية » التي تبعد مسير يوم واحد عن حماة واستولى عليها عنوة ، ولكنه بعد عامين أصيب بهزيمة في موقعة دارت بينه وبين جوسلين الثاني ، غير أنه لم يلبث أن ثار للهزيمة التي لحقت به ، وأسر جوسلين الذي يقول فيه ابن الأثير : « كان أسره من أعظم الفتوح لأنه كان شيطاناً عاتياً شديداً على المسلمين قاسى القلب ، وأصابت النصرانية كافة

الاستيلاء على
قلعة أفامية
— ١١٤٩
م ١١٥٠
أسر جوسلين

(١) توفي سيف الدين غازى في تشرين الثانى ولم يعقب ولداً ولهذا ولى أخوه المسمى قطب الدين مولود أتابكة الموصل .

بأسره . وقد استطاع نور الدين بعد هذا النصر أن يستولى على عدة مدن كانت في قبضة الصليبيين كقلمنة « تل باشر » و « عنتاب » و « نهر الجوز » و « برج الرصاص » ؛ وقد دارت معركة أخرى في « دلوك » انكسر فيها الفرنج وأصيبوا بهزيمة شديدة ، وبذلك تم لنور الدين فتح معظم ولاية أنطاكية .
وفي عام ٥٤٧ هـ (١١٥٢ — ١١٥٣ م) توفى السلطان مسعود وخلفه ابن أخيه الملكشاه السلطان محمود وهو آخر سلاطين تلك الأسرة .

ولكن طالما كانت دمشق في قبضة أمير مستقل مشكوك في أمانته كان نور الدين يجابه كأبيه صعوبات جمة في حروبه مع الصليبيين ، الذين قويت شوكتهم بالاستيلاء على « عسقلان » الواقعة على ساحل البحر ، فاستأنفوا جهادهم انزوا عاصمة الشام^(١) ؛ وفي هذا الوقت العصيب استنجد أهالي دمشق بنور الدين الذي لبي طلبهم في الحال ، وأقطع حاكمهم^(٢) إمارة مدينة حمص عوضاً عن دمشق التي ولى عليها ابن زنكي العظيم بين فرح الشعب وغبطته .

وقد أنم الخليفة على نور الدين بلقب « الملك العادل » تقديراً له على انتصاره على الصليبيين ، وفي تلك الأثناء حصلت هدنة قصيرة بينه وبين الصليبيين استطاع أن يعمر في أثناءها الخرائب التي سببتها الزلازل .

وفي عام ١١٦٠ توفى الخليفة المكتفي ، وخلفه ابنه أبو المظفر يوسف الملقب « بالمستنجد بالله » . وبعد ست سنوات سير نور الدين الحملة المشهورة على مصر ، وكانت الخلافة الفاطمية وقتئذ قد تداعت أركانها ، وكان آخر خلفائها المسمى « العاضد بدين الله » قد بلغ منتهى الضعف والاستكانة . وتقول لنا الرواية : إنه بينما كان وزيره شاور السعدي مستأثراً بالحكم نازعه زعيم آخر اسمه ضرغام

(١) وفي أيام طفتكين اتفق الصليبيون مع الباطنيين على الزحف على دمشق ، ولكنهم ردوا على أعقابهم بعد أن منوا بخسائر فادحة .
(٢) هو مجير الدين أبك وكان قد تكاثب سرا مع الفرنج على خيانة البلاد غير أنه أقصى من حمص وبعد موته ولى ابنه تاج الملوك ولاية دمشق .

عسقلان
٤٩٢-٥٦٩ هـ

وفاة الخليفة
المكتفي
١٢ - ٣ -
١١٦٠ م

نيسان ١١٦٤ م على السلطة وغلبه عليها ، فهرب شاور إلى الشام مستنجداً بأمير دمشق أن يساعده على استرداد منصبه ، على أن يمده هو بالجنود المصرية و يقطعه الأراضي الشاسعة ويدفع له جزية سنوية ، ولكن نور الدين أبي في بادي الأمر ، غير أنه لم يلبث أن أجابه إلى سؤاله ، وأرسل معه قوة من جيشه بقيادة «أسد الدين شركو» عم صلاح الدين المشهور . وما كاد شاور يسترد نفوذه حتى اتصل بالفرنج ، ونسى كل المهود التي قطعها على نفسه لنور الدين فلبى الصليبيون طلبه ، غير أنهم عجزوا عن طرد شركو بعد أن حاصروه مدة ثلاثة أشهر في بلبس ، ولكنه عاد ووافق من تلقاء نفسه على الجلاء عن مصر .

تشرين الأول
وتشرين الثاني
١١٦٤ م

آب ١١٦٤ م وفي رمضان سنة ٥٥٩ هاجت نور الدين جيوش الفرنج والروم معاً ، وكانت المعركة التي دارت عند أسوار قلعة « حارم » من أشد معارك الصليبيين ، غير أن نور الدين مع ذلك ألحق بالفرنج هزيمة منكرة ، وأسر معظم قوادهم أمثال بومند وأمير أنطاكية وريموند حاكم طرابلس وجوسلين الثاني وقائد الروم ، وعلى أثر هذا النصر الباهر أذعنت قلعت حارم ، وقلعة بانياس وحصن المنيطرة بالتسليم . وفي سنة ٥٦٢ احتل شركو مصر ثانية ، ولما استنجد « شاور » بالفرنج لبي طلبه « أمورى » الذى كان قد ارتقى عرش بيت المقدس منذ حين ، فرأى الفرصة سانحة وقتئذ للاستيلاء على مصر والاستئثار بها ، وماهى إلا برهة حتى سير جيشاً لنجدة شاور . ويقول لنا ميشو : « إن زحف جيوش شركو وفوزه النهائى فى واقعة بلبس ينهضان دليلاً على كفاية عسكرية ممتازة » ، ويقول ابن الأثير : « لم يعرف التاريخ حادثة أعظم شأنًا وأجل خطراً من تلك الحادثة التي تغلبت فيها الجيوش المصرية على جيوش الفرنج » .

كانون الثاني
وشباط
١١٦٧ م

٤٩٢-٥٦٩ م

وبعد أن أحرز شركو هذا النصر الباهر استولى على الإسكندرية ، ونادى بنفسه حاكماً عليها ، وكذلك عقدت معاهدة صلح بين المصريين والفرنج من جهة وبين نائب نور الدين من جهة أخرى ؛ وقد اشترط فيها أن يسحب « أمورى »

جيشه من مصر ، ويمتنع عن أى تدخل فى شؤونها على أن يغادر شركو الإسكندرية إلى الشام ويمطى له مقابل انسحابه خمسين ألف دينار ؛ غير أن الصليبيين كانوا قد اتفقوا سراً مع شاور على أن يسمح لهم بترك حامية فى القسطنطينية خلافاً لشروط المعاهدة المعقودة مع شركو ؛ وتقول لنا الرواية : إن هؤلاء الجنود الذين عسكروا على مقربة من القسطنطينية ، وفى بعض المدن الأخرى أخذوا يرتكبون شتى الفظائع ، فلم يملك الخليفة « العاضد » إلا أن يستنجد بنور الدين الذى سير « شركو » ثانية على رأس حملة كبيرة للقضاء على الصليبيين ؛ وما إن وافى « شركو » مصر حتى أسرع الصليبيون بترك البلاد بعد أن أعمالوا فيها يد النهب والتخريب . وفى ٨ كانون الثانى سنة ١١٦٩ دخل شركو القسطنطينية ، فاستقبله المصريون والخليفة الفاطمى استقبالا منقطع النظير . ولما قتل شاور تقلد شركو منصب الوزارة وإمارة الجيش ، ولكنه لم يكده يمضى فى الحكم شهرين حتى وافته منيته ، فخلفه ابن أخيه صلاح الدين يوسف ولقب « بالملك الناصر » وظل مع ذلك يعد نفسه نائباً عن نور الدين ، واستطاع بدله وكرمه أن ينال رضاء الشعب وحبه ؛ وكان العاضد فى تلك الأثناء على فراش الموت ، فاتهمز صلاح الدين — الذى كان حنفي المذهب — هذه الفرصة وأعاد سلطة الخليفة العباسى فى مصر .

٨ - ٩ -
م ١١٦٩

١٠٩٩ -
م ١١٧٤

وقاة المستنجد
مبايعة أبى محمد
الحسن المستضى .
بالله

٢١ - ١٢ -
م ١١٧٠

وفى سنة ١١٧٠ توفى الخليفة المستنجد وخلفه ابنه أبو محمد الحسن ولقب « بالمستضىء بالله » . ويصفه ابن الأثير « بأنه من أحسن الخلفاء سيرة مع الرعية فهما ، كثير الرفق بهم ، شديد على أهل الميث والفساد والسعاية بالناس » . وفى سنة ٥٦٥ هـ (١١٧٠ م) توفى قطب الدين مودود ثالث أبناء زنكى ، فارتقى ولده « سيف الدين غازى » عرش المملكة الزنكية ، وفى عهده اضطربت الأمور فى الموصل ، فأسرع نور الدين إلى نجدة ابن أخيه ، ونظم مملكته واحتفظ لنفسه بإدارة الجيش .

وفي محرم سنة ٥٦٧ توفى آخر الخلفاء الفاطميين ، وبموتة انقضت الخلافة الفاطمية^(١) ، وغدت مصر تابعة للنفوذ الروحي للخليفة العباسي في بغداد ، كما أصبح صلاح الدين الحاكم المطلق في مصر ، وكان يبدى خضوعه وولائه لنور الدين ، ولكنه ما عثم أن استقل بملك مصر بمقتضى وفاته ، ولم يكن صلاح الدين حينئذ قد ناهز^(٢) الخامسة والثلاثين ، وكان قد تقلد عدة مناصب قبل رحيله مع عمه إلى مصر . ويضفه مترجمه^(٣) : « بأنه كان رجلاً تقياً ، هادئاً الأخلاق ، بسيطاً في معيشته ، فارساً شجاعاً ، وطد النفس على النهوض بشعبه إلى مصراتى السعادة والهناء » .

- ٤٩٢
٥٥٦٩

وفي سنة ٥٦٩ هـ أرسل صلاح الدين أخاه تورنشاہ بمواقفة سيده لإخضاع اليمن فتم له فتحها .

- ١١٧٣
٢١١٧٤

وبموت نور الدين استطاع صلاح الدين أن يوطد ملكه ويدعم استقلاله في مصر وجزء من بلاد النوبة والحجاز واليمن .

ولم يعقب نور الدين غير ابن واحد يدعى إسماعيل الملقب بالملك الصالح ، وكان عمره وقتئذ إحدى عشرة سنة .

- ١٥
٢١١٧٤

(١) بلغ مدة حكمهم ٢٦٦ سنة .

(٢) ولد صلاح الدين سنة ١١٣٧ - ١١٣٨ م (٥٥٣٢) .

(٣) هو القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف المعروف باسم ابن شداد ، وكان يقوم بوظيفة قاضى المسكر ومستشار صلاح الدين .